الجزء الرابع — المجلد الثامن والأربعون

مجلة

مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

رمضان سنة ١٣٩٣ هـ — تشرين الأول « أكتوبر » سنة ١٩٧٣ م

الألفاظ والحياة

الأستاذ شفيق جبري

تذكرت مقالات كنت أطالعها في إحدى صحف « باريز » من أربعين سنة أو أكثر، عنوان تلك المقالات : الألفاظ والحياة . لقد عاد إلى ذهني هذا العنوان فوجدت أن صاحبه أصاب في اختياره كلّ الإصابة ، فكأن كاتب المقالات أراد أن يبيّن لنا أن الألفاظ تابعة للحياة ، إنها تتحوّل بتحوّلها ، فكما أن الحياة لا تثبت على طورٍ من الأطوار ، فكذلك الألفاظ فإنها لا تثبت على وجهٍ من الوجوه على تراخي الأحقاب، فالصلة بين الحياة وبين الألفاظ مستحكمة الأواصر ، وقد يختلف هذا العنوان: الألفاظ والحياة عن عنوان كتاب الأستاذ « دار مستتر » : حياة الألفاظ، فإن هذا الأستاذ العظيم تتبّع الألفاظ في ميلادها وحياتها وموتها ، ووضّح لكل أمرٍ من هذه الأمور الثلاثة العلل والأسباب ، وقد تكون هذه العلل نفسية أو منطقية أو اجتماعية أو غير ذلك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلنشرع بعد هذا في ذكر طائفةٍ من الألفاظ التي شاعت على ألسن العامة وأصلها فصيح ، وقد تتغيّر معاني هذه الألفاظ في بعض الأوقات كما تتغيّر الحياة أو قد تحافظ على أصلها القديم .

من بقايا الفصاح : فطس يفطس فطوساً أي مات ، ومشتقّات هذه المادّة كثيرة لا حاجة بنا إلى الاستقصاء فيها . إن صاحب القاموس المحيط قد أطلق في هذه المادّة معنى الموت إطلاقاً فلم يقيّده بشيء ، على أنّا في هذا العصر ،وفي الشام خاصّة إذا قلنا : فلان فطس ، فإنّا لا نريد بذلك مجرّد الموت ، ولكنّا نرمي في قولنا إلى شيء من التحقير ، فكأن الذي يفطس لا يموت كما يموت كل إنسان ، فلا نراعي في هذا الفطوس حرمة الميّت ، وإنما نريد تحقيره ، فكأنه لا شأن له في حياته ، أو كأنه صاحب شرٍّ قد نجونا من شرّه ، أو غير ذلك من المعاني التي تجول في أذهاننا ، فمادّة : فطس ، عاشت حتى عصرنا ، ولكنها تحوّلت عن وجه إلى وجهٍ ، عن وجه حسن إلى وجه قبيح . وقد نجد هذه المادّة في بعض كتب التراجم والتاريخ قبل عصرنا الحديث وكأنما أراد أصحابها المعنى الذي يشيع على ألسن العامّة يومنا هذا .

ومن الألفاظ الفصيحة التي لا تزال تعيش في عصرنا مع تحوّل معناها لفظة : الاستعمار ، فقد جاء في كتاب الله عزّ وجلّ : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »[1] ، فالاستعمار في القرآن الكريم معناه من أشرف المعاني ، ففيه معنى الاستبقاء من العمر ، وفيه معنى القدرة على العمارة ، عمارة الديار وغير ذلك . ولكن هذه المادّة قد انتقل معناها من أسمى الوجوه إلى أدناها ، فالمستعمرون لا يريدون باستعمارهم الاستبقاء من العمر ، أو القدرة على العمارة ، وإنما الاستعمار يراد به في عصرنا القضاء على كل سيادةٍ ، والغلبة على كل أمر ، والانفراد بالسلطان ، والاستصفاء لأموال البلاد ، والإذلال للناس ، وغير ذلك من الأمور التي أصبح هذا العصر لا يطيقها ولا يسكت عنها . أفرأينا كيف تنتقل معاني الألفاظ من

(١) ٦١ هود .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أفق إلى أفق، إنها تابعة للحياة فلا قدرة لنا على الوقوف بها عند حدٍّ من الحدود، كما لا قدرة لنا على حجز الحياة في مجال من المجالات .

وإذا كانت العامّة قد تتصرّف في معاني فئة من الألفاظ فإنها قد تحافظ في كثير من الأوقات على أصل المعاني مع تغيير يسير في النطق ، فمن قول العامّة : جرّصوه ، بالصاد وهم يريدون بذلك : فضحوه .

وفي اللغة : التجريس بالقوم معناه التسميع بهم ، فالمعنيان الفصيح والعامّي لا تباعد بينهما إلاّ أن العامّة نطقت بالصاد بدلاً من السين ، والمشهور أن الصاد تبدّل بالسين ، لخفّتها على اللسان .

ومن التعابير التي عاشت في عصرنا وأصلها فصيح لطيف ، قولنا : على عيني ورأسي ، فإذا طلب إلينا أحد أن نعمل عملاً وأردنا تلبية طلبه قلنا له: على الرأس والعين . وهو تركيب فصيح ، فقد جاء في الأغاني في الكلام على خبر العبّاس ابن الأحنف وفوز ما يلي : كانت فوز جارية لمحمد بن المنصور وكان يلقّب : فتى العسكر ، ثم اشتراها بعض شباب البرامكة وحجّ بها ، فلما قدمت على العبّاس قال :

ألا قد قدمت فوز فقرّت عين عبّاس
لمن بشّرني البشرى على العينين والراس

فهذا تعبير لطيف ، فيه أدب ورقّة ، لا يزال يستفيض في ألسن العامّة والخاصّة .

ومن هذه الموادّ التي لا تباعد بين معناها الفصيح ومعناها العامي قولنا : فلان شيطان ، فنحن نريد بذلك أنه قادر على حسن التصرف في الأمور والتخلّص من المصاعب وغير ذلك من المعاني التي تدلّ على المهارة والحذق ، وقد جاء في الأغاني في كلام صاحبه على خبر لبيد في مرثية أخيه : وكان هؤلاء الثلاثة رؤوس القوم وشياطينهم . فالشيطان في هذا المقام انتقل معناه من وجه قبيح إلى وجه يدلّ على الفهم والقدرة وغير ذلك .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد نمرّ ببعض موادّ شاعت في القديم ثم مات معناها في أيّامنا ، فنحن نقول في عصرنا إذا دفعنا إلى أحد مالاً : أخذنا وصلًا ، ولكنّا نجد في بعض مواطن من كتاب الأغاني : اكتبْ لي قبضاً بها وخذها ، فالوصل قام مقام القبض .

ومن بقايا الفصاح : التحتاني والفوقاني . ولكن صاحب القاموس المحيط نسب إلى تحت : التحتية ، كما جاء في مادة « خبل » في اعتراضه على الجوهري فاستعمل : التحتية فقال : فبالمثنّاة التحتية ، ولم يقل : التحتانية . ولست أدري أيصح أن نقول : التحتاني والفوقاني فإني لم أمرّ بهذه النسبة في مطالعاتي ، ولكني مررت بنسبة تشبهها وهي : الجوّاني والبرّاني ، فقد جاء في القاموس المحيط في تفسير مادّة الجوّ ، أن من معاني الجوّ : داخل البيت كجوّانيّه . وكذلك جاء في تفسير مادّة البرّ قوله : ومن أصلح جوّانيه أصلح الله برّانيه ، نسبة على غير قياس .

ومن الصور المجازية التي عاشت في لغة العامّة قولهم : فلان ما معه لعب ، وهم يريدون بذلك أن فلاناً حذر ، يقظ ، لا يدخل الناس عليه مدخل سوء ولا يفوته شيء ، إلى غير ذلك من المعاني التي تدلّ على الحذر واليقظة أو على البطش وقد استعمل المتقدمون هذا التركيب فقد جاء في الأغاني : ليس مع السيف لعب ، أي إذا جاء السيف جاء الجد فليس معه هزل واستخفاف .

وآخر ما استشهد به في هذا المقام من بقايا الفصاح : الفذلكة : وهي فصيحة ، يقول صاحب القاموس المحيط : فذلك حسابه أنهاه وفرغ منه ، مخترعة من قوله : إذا أجمل حسابه فذلك كذا وكذا ... ولكن العامّة لم تتقيّد بهذا الوجه فهي تستعمل الفذلكة في غير أمور الحساب أيضاً ، إذ تريد بها في بعض الأحيان : الخلاصة أو التعليل أو ما شابه ذلك . وعلى كل حال ليس من تباعد بين إنهاء الحساب والفراغ منه وبين إنهاء بيان من البيانات وتلخيصه .

فما أشبه تحوّل الألفاظ بتحوّل الحياة ، وما أشدّ الصلة بين الألفاظ وبين الحياة .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net